

وخصّ بالمزيد والاستبشار، في قوله عز وجل فلما حضروه قالوا أنصتوا، فلما قضى ولّوا إلى قومهم منذرين، وفي قوله عز وجل فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون. ويكون من نعت من مدحاً بالعلم وأثنى عليه بالرجاء ووصفه بالخوف في قوله تعالى يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون. وقال عز وجل يدعون ربهم خوفاً وطمعاً، فكان هذا من أهل الله وخاصته، ومن محبيه وخاصته، كما روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل القرآن أهل الله وخاصته من خلقه. وقال ابن مسعود من كان يحب القرآن فهو يحب الله، وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله. وهذا كما قال لأنك إذا أحببت متكلماً أحببت كلامه، وإذا كرهته كرهت مقاله. وقال أبو محمد سهل: من علامة الإيمان حب الله عز وجل، ومن علامة حب الله عز وجل، ومن علامة حب القرآن حب النبي صلى الله عليه وسلم، وعلامة حب النبي صلى الله عليه وسلم أتباعه، وعلامة أتباعه الزهد في الدنيا. وحدثونا عن بعض المريدين قال كنت في جدة إرادتى قد لهجت بتلاوة القرآن ثم رهقتنى فترة فبقيت أياماً لا أقرأ، فهتف بى هاتف من قبل الله عز وجل إن كنت تحببني فلم جفوت كتابي، أما ترى ما فيه من لطيف عتابي وقال بعض العارفين لا يكون المرید مريداً حتى يجد في القرآن كل ما يريد ويعرف منه النقصان والمزيد ويستغنى بالمولى عن العبيد. وأقل ما قيل في العلوم التي يحويها القرآن من ظواهر المعاني المجموعة فيه أربعة وعشرون ألف علم وثمانمائة علم، إذ لكل آية علوم أربعة، ظاهر وباطن وحدّ ومطلع. وقد يقال إنه يحوى سبعة وسبعين ألف علم ومائتين من علوم، إذ لكل كلمة علم، وكل علم عن وصف، فكل كلمة تقتضى صفة، وكل صفة موجبة أفعالاً حسنة، وغيرها على معانيها، فسبحان الفتاح العليم.

## الفصل الثامن عشر

### فيه كتاب ذكر الوصف المكروه من نعت الغافلين

فإذا خالف التالي هذا الوصف الذي شرحناه أو كان على ضد ذلك من السهو والغفلة والعمى والحيرة، محدثاً لنفسه مصغياً إلى هواه ووسوسة عدوه، متوهماً للظنون، عاكفاً على الأمانى، حقت عليه أن يكون بمعانى ما قال الله عز وجل - ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى، يعنى إلا تلاوة القرآن لا غير، وإن هم إلا يظنون، فوصفهم بالظن وهو ضد اليقين، كما أخبر عن الظانين في قولهم إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين، وبمعنى ما قال وكأين من آية

فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون، فالقرآن من أجل آيات الأرضين والسموات الدالة على فاطرهما ومنزله، وكان بوصف من يهدده بعلمه فيه عند استماعه لكلامه العزيز متهاوناً به مناجياً لغيره أن يقول تعالى - نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى، ويمثل من يسمع وقلبه مشغول عن المسموع بما يضره عما ينفعه، حتى إذا خرج عن الكلام سأل من حضر بقلبه ماذا فهم من الخطاب الذى كان هو عنه بغفلة قد غاب، وقد كان حاضراً بجسمه حجة عليه، فمن ذلك قوله عز وجل ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً، قال الله تعالى أولئك الذين طبع الله على قلوبهم، أى عن فقه الخطاب فلم تسمعه القلوب ولم تعه، واتبعوا أهواءهم يعنى أباطيلهم وظنونهم الكاذبة. ويقال إن العبد إذا تلا القرآن واستقام نظر الله إليه برحمته، فإذا قرأ القرآن وخطأ ناداه الله عز وجل مالك ولكلامى وأنت معرض عنى، دع عنك كلامى إن لم تتب إلى.

ورويانا فى الإسرائيليات أوحى الله عز وجل إلى نبيّه موسى وداود عليهما السلام مرّ عَصَاة بنى إسرائيل أن لا يذكرونى فإنى أليت على نفسى أن أنكر من ذكرنى، وإنى أنكرهم بلعنة. وكان بوصف من أخبر عنه إذ يقول تعالى فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا الآية. وهذا وصفهم الظن الكاذب والرجاء المختلف اللذان لم يفترقا إلى خوف وإشفاق، عصواً خالقهم عاجلاً وتمنوا عليه المغفرة أجلاً، جهلاً منهم بحكمته وإعراضاً عن أحكامه. قال الله عز وجل ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه، ثم أخبر عن علمهم بذلك علم قول وخبر لا علم يقين ومعينة، قال سبحانه ودرسوا ما فيه أى قرؤا هذا وعلومه ولم يعملوا به فلم ينتفعوا بشيء منه، فكان هذا توبيخاً لهم وتقريعاً، كقوله تعالى قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين. وفيها وجه غريب. ودرسوا ما فيه أى محوه بترك العمل به والفهم له، من قواك درست الريح الآثار إذا محتها، وخط دارس وربع دارس إذا مَحَى وعفى أثره. وهذا المعنى مواطىء لقوله تعالى نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، واتبعوا ما تتلو الشياطين أى ما تتبع وتهوى. ومواطىء لقوله تعالى فنبهوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئسما يشترون، فسمى ترك العمل منهم به فى كل حالة طرْحاً له والقَاءُ ونفياً له وبيعاً له، وبالدنيا اشتراه. وكل آية فى التهديد والوعيد فللخائفين منها وعظ وتخويف، وللغافلين عنها وصف وتعريف، علمه من علمه، كقوله تعالى فى ذكر النار ذلك يخوف الله به عباده يا عبادى فاتقون. وقال فى خبرها أعدت

للكافرين. وقال بعض السلف إن العبد ليفتح سورة فتصلى عليه الملائكة حتى يفرغ منها، وإن العبد ليفتح سورة فتلعنه حتى يفرغ منها، فليل وكيف ذلك، قال إذا أحل حلالها وحرم حرامها صلّت عليه، وإلا لعنته. وقال بعض العلماء إن العبد ليلتو القرآن فيلعن نفسه وهو لا يعلم، يقول ألا لعنة الله على الظالمين وهو ظالم، ألا لعنة الله على الكاذبين وهو منهم. وقال سفيان في قوله تعالى سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق، قال أصرف عنهم فهم القرآن. وفي الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عظمت أمتي الدنيا والدرهم نُزِعَ منها هيبة الإسلام، وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حُرِموا بركة الوحي. قال الفضيل حُرِموا فهم القرآن. وفي الأخبار من ذمّ قراءة البطالين أكثر من أن تذكر، فمنها ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أكثر منافقي أمتي قرأوها. وكان الحسن يقول إنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل وجعلتم الليل جملاً، فأنتم تركيبونه فتقطعون به مراحل، وإن من كان قبلكم رأوه رسائل أمتهم من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل وينفقونها بالنهار. وكان ابن مسعود من قبله يقول أنزل عليهم القرآن ليعلموا به فاتخذوا دراسته عملاً. إن أحدهم ليلتو القرآن من فاتحته إلى خاتمته، ما يسقط منه حرفاً وقد أسقط العمل به. وفي حديث بن عمر وحديث جندب لقد عشنا برهة من دهرنا وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن فتتزل السورة على محمد صلى الله عليه وسلم فننتعلم حلالها وحرامها، وأمرها وزجرها، وما ينبغى أن يقف عليه منها كما تعلمون أنتم القرآن، ثم بعد لقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته لا يدرى ما أمره ولا زجره، ولا ما ينبغى أن يقف عنده منه فينثره نثر الدقل، وهذا كما قال لأن المراد والمقصود بالقرآن الاستثمار لأوامره والانتهاه عن زواجره، إذ حفظ حدوده مفترض ومسؤول عنه العبد ومعاقب عليه، وليس حفظ حروفه فريضة، ولا عقاب على العبد إذا لم يحفظ ما وسعه منه. قال الله عز وجل إننا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً، أى العمل به ثقیل وإلا فقد يسره للذكر. ومن ذلك الخبر المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرؤا القرآن ما اختلفت عليه قلوبكم ولانت له جلودكم، فإذا اختلفتم فليستم تقرؤنه. وفي بعضها فإذا اختلفتم فقوموا عنه. وحديثي شيخ فاضل قرأت عليه القرآن على شيخ لى فلما ختمت رجعت إليه لأمرأ، فانتهرنى وقال جعلت القرآن على عملا. إذهب فاقراً على الله عز وجل، فانظر ماذا يسمعك منه ويفهمك عنه.

وقد كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من لا يحفظ إلا الجزء والجزئين،

والسور المعودة وسورتين، وكان من يحفظ الحزب منه وهو السُّبُع أو البقرة والأنعام عَلَمًا فيهم. وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عشرين ألف صحابي لم يقرأوا القرآن غير نظر، فلم يحفظ القرآن كله منهم إلا ستة اختلف منهم في اثنين. وقال بعضهم ولم يكن جمعه من الخلفاء الأربعة أحد. وختم ابن عباس على أبي بن كعب، وقرأ عبد الرحمن بن عوف على ابن عباس، وقرأ عثمان بن عفان على زيد بن ثابت، وقرأ أهل الصُّفَّة على أبي هريرة، وكلهم كان متبعا لأوامره مجتنبًا لزواجه. عالما به فقيها فيه. وقال يوسف بن أسباط وقد قيل له إذا ختمت القرآن بأى شيء تدعو، فقال بأى شيء أدعو، أستغفر الله عز وجل مائة مرة من تلاوتى. وكان يقول إنى لأهمُّ بقراءة القرآن فإذا ذكرت ما فيه خشيت المقت فأعدل إلى التسبيح والاستغفار.

وأعلم أن للعبد فى قراءة القرآن بحسب ماله من تعظيمه والفهم له والمشاهدة منه والمعاملة به، لأنه من أكبر شعائر الله فى خلقه، وأعظم آياته فى أرضه الدالات عليه، وأسبغ نعمة الكاملة علينا. وللعبد من التعظيم له بقدر تقواه. وله من فهم الخطاب وتعظيم الكلام على نحو ما أعطى من معرفة المتكلم وهيبته وإجلاله، فإذا عظم المتكلم فى قلبه، وكبر فى فهمه، أنعم تدبر كلامه، وأطال الفكر فى خطابه، وأكثر ترادده وتكريره على قلبه، وأسرع بذكره عند النازلة به والحاجة إليه، فاتقى وحذر، ولذلك قال سبحانه واذكروا ما فيه لعلمكم تتقون. وقال كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون، ولعلمهم يتذكرون، لأن كل كلام موقوف على قائله، يعظم بتعظيمه، ويقع فى القلب بعلو مكانه، أو يهون بسهولة شأنه.

قال الله عز وجل ليس كمثله شيء، فى العظمة والسلطان، وليس ككلامه كلام فى الأحكام والبيان، وقرأت فى سورة الحنين من التوراة - يا عبدى.. أما تستحيى منى - يأتيك كتاب من بعض إخوانك وأنت فى الطريق تمشى فتعدل عن الطريق وتقع لأجله وتقرؤه وتدبره حرفا حرفا حتى لا يفوتك شيء منه. وهذا كتابى أنزلته إليك أنظر كم وصلت لك فيه من القول، وكم كررت عليك فيه، فتأملت طوله وعرضه، ثم أنت معرض عنه، أفكنت أهون عليك من بعض إخوانك؟.. أى عبدى يقعد إليك بعض إخوانك فتقبل عليه بكل وجهك، وتُصغى إلى حديثه بكل قلبك، فإن تكلم متكلم أو شغلك شاغل عن حديثه أو مات إليه أن كُف، وما أنا ذا مقبل عليك ومحدث لك، وأنت معرض بقلبك عنى، فجعلتنى أهون عندك من بعض إخوانك أو كما قال.

وإنما خف القيام على أهل الليل لفهم الخطاب، وتقل على أهل النوم لانفصام القلوب عن

الفقه وشدة الحجاب ، كما قال تعالى ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَيْ خَفِيَ عَلَيْهَا يَعْنِي السَّاعَةَ ، فَثَقُلَتْ عَلَيْهِمْ فَسُمِّيَ مَا خَفِيَ ثَقِيلًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

## الفصل التاسع عشر

### كتاب فيه ذكر الجهر بالقرآن وما في ذلك من النيات وتفصيل حكم الجهر والإخفات

روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فضلُ قراءة السرِّ على قراءة العلانية كفضل صدقة السرِّ على صدقة العلانية، وفي لفظ آخر الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمُسْرُّ به كالمُسْرُّ بالصدقة. وفي الخبر العام يفضّل عمل السر على عمل العلانية بسبعين ضعفا. وفي مثله من العموم خير الرزق ما يكفى وخير النكر الخفى. وفي الخبر لا يجهر بعضكم على بعض فى القراءة بين المغرب والعشاء. وسمع سعيد بن المسيب ذات ليلة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن عبد العزيز يجهر بالقرآن فى صلاته، وكان حسن الصوت، فقال لفلانم برد - إذهب إلى هذا المصلّى فمره أن يُخَفِّضَ من صوته ، فقال الغلام إن المسجد ليس لنا وإن للرجل فيه نصيبا، فرفع سعيد صوته فقال يا أيها المصلّى إن كنت تريد الله عز وجل بصلاتك فاخفض صوتك، وإن كنت تريد الناس فإنهم لن يفتنوا عنك من الله شيئا، قال فسكت عمر وخفف ركعته . فلما سلّم أخذ نعليه وانصرف وهو يومئذ أمير المدينة. وعلى ذلك فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع جماعة من أصحابه يجهرون بالقراءة فى صلاة الليل فيصوّب ذلك لهم ويسمع إليهم . وقد أمر بالجهر فيما روى عنه إذا قام أحدكم من الليل يصلى فليجهر بقراءته فإن الملائكة وعمّار الدار يستمعون إلى قراءته ويصلون بصلاته . ومرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على ثلاثة من أصحابه فى الليل مختلفى الأحوال، منهم من كان يُخَافُ وهو أبو بكر رضى الله عنه، فسأله عن ذلك فقال إن الذى أناجيه هو يسمعى ، ومنهم من كان يجهر وهو عمر رضى الله عنه فسأله عن ذلك ، فقال أوقظ الوسنان وأزجر الشيطان ، ومنهم من كان يقرأ أيا من هذه السورة ومن هذه السورة وهو بلال ، فسأله عن ذلك فقال أخلط الطيب بالطيب ، فقال كلكم قد أحسن وأصاب، فنقول والله أعلم إن المخافتة بالقراءة أفضل إذا لم تكن للعبد نية فى الجهر، أو كان ذاهبا عن الهمة والمعاملة بذلك ، لأنه أقرب إلى السلامة وأبعد من دخول الآفة . وإن الجهر أفضل لمن كان له نية فى الجهر ومعاملته